كمحور للظاهرة الشيعية على امتداد تاريخها · ويبدو لي مع ذلك اننا لن نستطيع تقدير هذا الدور جيدا ما لم ندرس خلفية النشأة وملابسات الموقع الذي تحددت فيه الحركة الشيعية من خلال المرحلة الاولى لصراعاتها ·

فلنرجع الى البداية · لقد ظهرت الشيعة كما قلنا خارج السلطة الاسلامية كمقابل ، وربما كنقيض ، لها وخاضت الصراع ضد عناصر اسلامية صرفة تتمثل في خلافة ابي بكر وعمر المدعومة باغلبية الصحابة ، ثم ضد الخلافة الاموية بدءا من عثمان · وقد واجهت في اثناء ذلك وضعين متعارضين يتشكل الاول من مؤسسي الاسلام ، والثاني من خصومه · وكان عليها ان تحدد موقفا ايديولوجيا ازاء ذلك يبرر لها المعارضة · ومن هنا كان الاستناد الى القربي في الصراع ضد الفريق الاول ، حيث امكن القول ان اهل بيت النبي اولى بخلافته من اصحابه · وهي حجة صيغت ببراعة ، لكنها لم تنقذ القائلين بها من الاشكال الناجم عن مجابهة زعامات كانت موضع ثقة النبي ، وكانت لها اشواط في تأسيس الاسلام ، دينا ودولة تعادل او تفوق ما قام به اهل البيت ، باستثناء علي بن ابي طالب · ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان المعارضة الشيعية الاولى انحصرت بين اقلية من الصحابة لا تتجاوز بضعة افراد ، وهو ما تشير اليه رواية عن جعفر الصادق تقول : كان الناس اهل ردة بعد النبي الاثلاثة ، المقدار بن الاسود وابو ذر الغفاري وسلمان الفارسي (١) · وقد تفاقم الاشكال في خلافة علي حين اضطر الى خوض الحرب ضد ثلاثي الجمل المؤلف من زوجة النبي الاثيرة وصحابيين من العشرة المبشرة · وكان لهذه الحرب تأثيرات سلبية بين اتباع الامام علي لانها موجهة ، فضلا عن قدسية القيادة ، ضد جيش مسلم · ولذلك يشار الى علي بن ابي طالب بانه « اول من علم قتال اهل القبلة » ، اي اول من وضع المبادىء التي تحكم القتال بين المسلمين بوصفه اول من خاض هذه التجربة بشكل فرض عليه تبريرها دينيا · وفي حرب صفين ، تراجعت الاشكالات موقتا حيث استطاعت القيادة الشيعية استغلال تاريخ الامويين المناوىء للاسلام لاظهارهم كمشركين سابقين يطلبون ثأرهم في بني هاشم · على ان ذلك لم يجنبهم ردود الفعل الدينية التي اثارتها مكيدة رفع المصاحف حين انشقت الفئات المتدينة في جيش علي (القراء) وفرضت عليه وقف القتال احتراما لكتاب الله وتجنبا لسفك المزيد من دماء المسلمين · وربما كانت هذه اول مجابهة بين الموقف الشيعي والموقف السلفي · ويحتمل انها لم تخل من افرازات ايديولوجية اذ يتردد في بعض مصادر الشيعة كلام ينسب لعلي وضع فيه نفسه مقابل القرآن : هذا كتاب الله الصامت وانا كتابه الناطق · وذلك ردا على مطالبة القراء بوقف القتال والاحتكام الى القرآن · وقوله لابن عباس حين انتدبه لمفاوضة الخوارج ونهاه عن مجادلتهم بالقرآن لانه (حمال اوجه) · وفي هذه العبارات ، سواء صدرت من علي او كانت اختلاقا